# أصول الدين

## تأليف الشيخ العلامة

## عبد الرحمن بن ناصر السعدي

## رحمه الله

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه وأتباعه .

أما بعد :

فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران :٨٥ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران : ١٩ وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران : ٦٤

وقد فسر الله الإسلام في مواضع من كتابه مثل قوله : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة : ١١٢

ففسره بإسلام الوجه الذي هو انقياد الباطن والظاهر لله ، خالصًا وهو محسن في هذا الانقياد بأن يكون على الصراط المستقيم ، الذي هو طريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة : ١٣٦ ، ففسره بالاعتقادات والإيمان بالله ، وماله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وبالإيمان بكل رسول أرسله الله ، وبكل كتاب أنزله الله على جميع الرسل ، خصوصًا ما سمى بهذه الآية الكريمة من صفوة الرسل أهل الشرائع الكبار ، وبالخضوع والانقياد لله ظاهرًا وباطنًا بطاعته وطاعة رسله ، وبيَّن تعالى أن هذا هو الهدى ، وأنه لا يحصل الاهتداء بغير هذا الطريق ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة : ١٣٧ ، فبين تعالى أنه لا يحصل الهدى والاهتداء بغير هذا الطريق كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ وهو الذي هدى به عباده على ألسنة رسله ، خصوصًا الهدى العظيم التام الذي جاء به خاتم الرسل وإمامهم محمد ﷺ من الحق علمًا وعملاً واعتقادًا وسلوكًا

، وهو الصدق في أخباره النافعة ، والعدل في أوامره ونواهيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام : ١١٥

وإذا أردت بيان ذلك والإشارة إليه على وجه التفصيل فإن دين الإسلام أمر العباد أن يؤمنوا بالرب العظيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الذي أحاط بكل شيء رحمة وعلمًا وقدرة ومشيئة ؛ فإنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ونفذت مشيئته في جميع الموجودات فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وقع كمال قدرته ومشيئته ؛ فإنه حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات ، وحكيم في جميع التصرفات ، وحكيم في كل ما شرعه من الشرائع ، فما خلق شيئًا عبثًا بل نَفْسُ خلقه صادر عن حكمته ، وما أوجده من المخلوقات فإنه مشتمل على غاية الحكمة ، وهو الحسن والإتقان والانتظام الذي تشهده الأبصار والبصائر ، وتصريف الأمور كلها وتقليبها من حال إلى حال كله على سعته موافق للحكمة والرحمة والمصلحة ، وكذلك ما شرعه من الشرائع وحكم به من الأحكام الشرعية بين عباده جميعه أصوله وفروعه وغاياته مشتمل على الحكمة التي لا غاية لها ولا منتهى لكمالها وحسنها .

وكما أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير ، وله الحكمة في خلقه وأمره وقضائه وشرعه فإن ذلك كله مملوء من رحمته التي من آثارها الخيرات ، والبركات وأنواع المنافع ، والمصالح الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة ، وفيها من النعم والخيرات مالا يعبر عنه المعبرون ، ولا يقدر أن يصفه الواصفون ، بل هي نعم لا تعد ولا تحصى ولا يحصي أحد ثناء عليه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ النحل : ٥٣ ، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل : ١٨

وهذا أمر قد اعترف به البر والفاجر ؛ ولهذا أخبر الله عن المشركين أنهم يعترفون أن الله هو الخالق وحده ، المالك وحده ، المدبر وحده المنعم وحده ، وإنما يتخذون أوثانهم ، ومعبوداتهم يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى ، وإلا فهم يعلمون عجزها وفقرها وغير ذلك من صفات النقص ، فإذا علم أن الله تعالى هو الذي له الأسماء العظيمة الحسنى ، والصفات الكاملة العليا ، وأنه المتفرد بكل كمال وعظمة وجلال ، وأنه الخالق الرازق المدبر ، ومن سواه مخلوق فقير إليه مدبَّر ، وأن جميع النعم والفضل والخيرات والمنافع

من الله وحده ، وأنه الدافع لكل شر وسوء ، فهو الذي يستحق أن يكون هو الإله المألوه وحده ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ الزخرف : ٨٤ ، أي : هو إله أهل السماء وإله أهل الأرض ، الذي يعظمه ويحبه ويدعوه أهل السماء والأرض دعاء عبادة ودعاء مسألة ، وهذا هو الغاية والمقصود الأعظم من خلق جميع المكلفين ليعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وليعبدوه وحده لا شريك له فيخلصوا له الدين ؛ ويقومون بالإيمان والإسلام والإحسان على الوجه الذي ينبغي ، على وجه الإخلاص والذل لله الواحد القهار ، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء : ٢٥ ، فأخبر أنه أوحى إلى جميع رسله أن يعترفوا بألوهيته وحده ، وأن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا ، وهذه العبودية التي أمر الله بها عباده هي طاعته وطاعة رسوله بتصديق خبر الله ورسوله ، وامتثال أمر الله وأمر رسوله ، واجتناب نهي الله ورسوله ، وذلك هو القيام بحقه تعالى على عباده ، وبالقيام بحقوق العباد بحسب حالهم ومراتبهم وذلك كله مبناه على العدل ؛ فإن أصل العدل و أساسه عبادة الله وحده لا شريك له ؛فإن توحيده أوجب الواجبات ، وأفرض الفرائض شرعًا وعقلاً ، والإخلال بالإخلاص أظلم الظلم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان : ١٣ ، وأي ظلم أعظم من ظلم من تفرد الله بخلقه وتدبيره فعبد سواه ، وتفرد بالإحسان إليه وإيصال الفضل إليه بكل سبيل ، فصرف شكره لغيره ، وإذا كان الشرك أظلم الظلم فما الظن بما هو أفظع من الشرك ، وهو الإنكار والإلحاد والاستكبار عن عبادته أو عن الاعتراف به ، فكل من لم يؤمن بالله ولم يخلص أعماله لله فهو ظالم على تفاوت عظمة الظلم وشناعته ، وكذلك حكمه وأحكامه بين عباده في المعاملات والحقوق الخاصة والعامة على كثرتها وتبحرها ، كل ذلك مبنى على العدل الذي تعترف بحسنه وكماله العقول السليمة والفطرة المستقيمة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة : ٥٠

وقد ذكر الله أصول العدل والإحسان في أصول الدين وفروعه قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ الأنعام : ١٥١ ، إلى قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الأنعام : ١٥٣

قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الإسراء : ٢٣ إلى قوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ الإسراء : ٣٩، فتأمل هذه الأوامر الجليلة الجميلة وما فيها من الخيرات وما تضمنته من أداء الحقوق التي هي أفرض الحقوق شرعًا ، وعقلاً ، وما نهت عنه من أصناف المحرمات المحتوية على الظلم والشر والضرر والفساد . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل : ٩٠ .

فقد جمعت هذه الآية الكريمة الأمر بكل عدل وإحسان وخير ، وحثت على أداء الحقوق العامة والخاصة ، ونهت عن كل منكر وفحشاء في حق الله ، وبغي على عباد الله بدمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وقد جمع الله أيضًا أصول العدل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ ﴾ الأعراف : ٢٩ .

كما جمع أصول الشر والظلم في الآية الأخرى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٣٣ .

وهذه المحرمات في كل شريعة ، وكل زمان ومكان ؛ لأن الشر والضرر والفساد ملازم لها حيث ما كانت ، وقال تعالى في بيان أصول البر والتقوى التي هي روح العدل . ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة : ١٧٧ .

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على أصول الشريعة وبيان صدقها وعظمتها وكمالها ومراعاتها للعدل والقسط والمصالح في كل زمان ومكان ، وفي كل حالة من الأحوال ، وتفاصيل الشريعة كلها تفصيل لما نصت عليه هذه الآيات وذلك أكبر برهان على أنها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت : ٤٢ ، عالم بمصالح عباده رحيم بهم حيث حثهم على ما ينفعهم ، وحذرهم عما يضرهم ، وأرشدهم إلى كل خير وهدى ، ونهاهم عن كل شر وسوء وردى ، وهي كلها حق مصدق يعترف أولو الألباب بها ، وتخضع العقول الصحيحة لها ، ويعلم أن كل ما نقضها وخالفها فإنه شر وغي وضلال ﴿ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ يونس : ٣٢ ، ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ سبأ : ٦ ، فأخبر أن الذين أوتوا العلم الحقيقي هم الذين يرون ويعترفون أن الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق في ذاته وأوصافه ، وأنه يهدي إلى صراط المستقيم الموصل إلى الله العزيز الحميد ، يعني : ويرون أن من خالفه وناقضه هو الباطل في ذاته وأوصافه ، وما يوصل إليه من غي وضلال ، وجهل وشر ، فهو تعالى الحق ودينه حق ووعده حق وقوله حق وما خالف ذلك باطل . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ الحج : ٦٢ ، ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ ﴾ الروم : ٦٠ ، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ الأحزاب : ٤ ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ النساء : ١٢٢ ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء : ٨٧

والحق هو الصلاح وبه الصلاح المطلق وضده هو الفساد .

قال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ المؤمنون : ٧١ ، فأخبر أن الحق لو كان تابعًا لأهواء كل مخالف للرسول ﷺ لحصل منه الفساد العام والضرر العظيم ؛ فكل شريعة وقانون وسياسة للمخلوق تنافي ما جاء به الرسول ﷺ ؛ فإن شرها مستطير ، وضررها كبير ، والتجربة والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك ، وحيث كان الحق وصف الدين اللازم الملازم قاوم كل ما عارضه من الجيوش الباطل المتكاثرة الجبارة ، فصمد لها وقاومها وأبطلها ومحقها ، وهو لا يزال – ولله الحمد – في كل وقت مستعد لمقاومة المعتدين ومنازلة الظالمين وتحدي كل معتد كفار أثيم قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ التوبة : ٣٣ ، ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ الإسراء : ٨١ ، فانظر إلى حالة النبي ﷺ ، وما عانى من مقاومات المبطلين ، وكيف أيده الله بالحق على جميع الطوائف الظالمين مع حنقهم وتاكلُبهم وتناصرهم على باطلهم حتى خرج منتصرًا بالحق الذي أيده الله . قال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ الأنفال : ٢٦ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة : ٤٠ .

ثم تأمل ما قام به الخلفاء الراشدون ومن معهم من الصحابة الأخيار ، ومن بعدهم من الملوك العادلين ، وكيف فتحوا القلوب بالعلم والإيمان ، وفتحوا الأمصار ، والحق معهم ملازم لهم والنصر من الله مؤيدهم ، ولم يزل الدين الإسلامي قد خضع له أهل المشارق والمغارب ، وقد تقبلوا وقبلوا بما فيه من العدل والرحمة والخير الذي لا يوجد في غيره فلما تحللوا بعد ذلك عن هذا الدين الحق شيئًا فشيئًا تقلص عزهم ، وسلطت عليهم الأعداء من كل مكان ، وهو مع كثرة الأعداء وشدة حنقهم واتفاقهم على محقه

وإبطاله ، ومع قلة أهله الحقيقين ووقوع التخاذل بين المنتسبين إليه – مع ذلك لم يزل – ولله الحمد – قائم الأصول ، محفوظ بحفظ الله ، مقاوما كل جيش يغزوه من أصناف الكفار المحاربين المعلنين محاربته ، ومن الزنادقة المنافقين الملحدين الذين يظهرون إلحادهم ، والذين يخفونه ويعملون في الباطن على القضاء عليه ، ولكنهم في كل وقت مخذلون يبدون المقاومات المتنوعة فيظهر للخلق باطلهم وإلحادهم ومكرهم ، ولا يروج باطلهم إلا على من لا بصيرة له ولا حق معه ، ولما علموا بذلك وعرفوا أنه ليس في إمكانهم مقاومة الحق سعوا في إضعاف الحق من قلوب من ينتسب إليه، ففتحوا المدارس التي تحت سيطرتهم ، وطردوا عنها علوم الدين أو جعلوه اسمًا بلا مسمى ليتمكنوا من بذر باطلهم في قلوب المتعلمين فيها ، الذين ليس عندهم علم بالحق يقاوم مكر هؤلاء وخداعهم ، وكان هذا أكبر النكبات التي أصيب بها المسلمون ، ومن أكبر السلاح لأعداء الإسلام ؛ حتى صار الخريج منها قد تسلح بسلاح أعداء الإسلام ، وصار أكبر عون على من ينتسب إليهم دينًا وقومية ووطنًا ، ففضل دين الأجانب الأعداء وقوميتهم ووطنيتهم على دينه وقومه ووطنه فزال دينه وفسدت أخلاقه وذهبت مروءته وإنسانيته ، فيتعين على كل أحد السعي في إصلاح التعليم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعاليم الدينية ومراعاة الأخلاق والمحافظة على المتعلمين وملاحظتهم ؛ فإن إصلاح التعليم هو السبب الوحيد لحفظ الدين، ومقاومة كل شر وفساد ، وسبب لصلاح الأمور كلها . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ التحريم : ٦

وذلك بالتعليم والإلزام بالحق علمًا وعملاً ؛ فمن أهمل أولاده ومن ( يقوم ) عليهم مما هو مسترعى عليه فقد عصى أمر الله وأمر رسوله ، وعرضهم للعقوبات ، فكيف إذا أهملهم عن التعاليم النافعة ، والآداب الصالحة ، وأشغلهم بضدها من التعاليم الضارة ؟ فما أعظم خسارة من خسر أولاده ، بل ما أعظم حسرة من كان أولاده الذين كان يرجو نفعهم ، بإهماله إياهم وتوجيهم للعلوم الضارة ، قد صاروا أعظم نكبة عليه وخسر دينه ودنياه .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" .

وذلك بالتعاليم المنحرفة ، وهذه المدارس الإلحادية تخرج الناشئين فيها من الأديان كلها ؛ لأن هذا هو الغرض المقصود بها ، ولأنها تلقي في أذهانهم قاعدة من أخبث أو أخبث أصول الإلحاد وهي أن العلم الحقيقي عندهم ما يدرك بالحواس فقط ، وما لم يدرك بالحواس فليس عندهم بعلم ، ولا يعد من الحقائق الصحيحة ، وهذه القاعدة الخبيثة خالفوا فيها جميع الأديان الصحيحة ، بل خالفوا فيها جميع العقلاء ؛ فإن مدارك العلم كثيرة متنوعة ؛ مدركات الحس ومدركات العقل ومدركات الأخبار الصحيحة ، والنوعان الأخيران مدركاتهما أعظم وأكمل وأوسع ، فإذا نفيت لم يبق إلا المدركات التي تدرك بالحس وهي دائرة ضيقة توقع أهلها في المهالك ، فأعظم آثارها وأبطلها إنكار علوم الغيب كلها ، وهو إنكار جميع ما أخبرت به الرسل والكتب المنزلة من السماء من توحيد الله ، وتفرده بصفات الكمال ، وتوحده بالخلق والتدبير ، وإنكار البعث والجزاء في الدار الآخرة ، وإنكار الملائكة والجن ، وجميع ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أنباء الغيب الواسعة المنتشرة التي قامت البراهين المتنوعة على حقها وصدقها وعدم الريب فيها ، فأنكرها هؤلاء الملحدون كما أنكرها أسلافهم الدهريون الذين قالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية : ٢٤ ، وقد علم أن آيات التوحيد ، وآيات البعث ، وآيات صدق الرسل والبراهين الدالة على ذلك التي لا يمكن إحصاؤها كلها – تبطل قول هؤلاء الملحدين ، وتخبر أنهم كما خرجوا من الدين خرجوا من العقل الصحيح ، وخالفوا فطرة الله التي فطر الله عباده عليها ، فجميع ما أخبر الله به في كتبه وعلى ألسنة رسله من أمور الغيب التي هي أعلى أنواع الصدق – أنكرها هؤلاء الملاحدة .

ومن المعلوم عند العقلاء المعتبرين أن من لم يؤمن بذلك الحق المبين الذي قامت الأدلة والبراهين بصدقه وحقيقته ويقينه لم يكن عنده علم وحق يؤمن به ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الجاثية : ٦-٨ .

وقد تحدت الرسل عليهم الصلاة والسلام جميع من كذبهم أن يعارضوا ماجاءوا به من الآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات ، فظهر عجز المكذبين ، وبانت مكابرتهم ، وأنهم ليسوا على شيء ، وانهم كانوا كاذبين ، وقد تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وأخبر أنهم ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء : ٨٨ ، والتحدي قائم منذ نزل القرآن وإلى أن تقوم الساعة ، وعجز المعارضين المكذبين قد ظهر لكل أحد ، وهذا من أعظم البراهين الموجبة لتصديق جميع ما أخبر به من علوم الغيب والشهادة .

كما أن من أعظم البراهين أحكام هذا الدين ، وصدق ما جاء به من الأخبار عن الأولين والآخرين ، وعن جميع أمور الغيب ، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض خبرًا من أخباره ، كما أن أحكامه أعدل الأحكام وأهداها وأقومها ، وبها الصلاح المطلق في كل زمان ومكان ، وقد بان لكل عاقل أن الأمور العامة ، والخاصة لا يمكن صلاحها واستقامتها واعتدالها حتى تطبق على أحكام الله بين عباده ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة : ٤٠ ، ولا ينكر هذا ولا يكابر فيه إلا أحد رجلين ؛ إما معاند مكابر ينكر الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة ، وإما ضال جاهل من أعظم الضالين فالعناد والضلال لا يستغرب على صاحبهما إنكار أعظم آيات الله ، وأعظم البراهين والمعجزات الدالة على صدق الرسل وحقية ما جاءوا به فهؤلاء داخلون في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ الآيات غافر : ٧٠-٧١ ، فهم كذبوا بجميع آيات الله التي هي أبين الآيات وأعظمها وأوضحها ، وبما أرسل الله به رسله من الحق النافع والصدق .

## فصل

وحيث كان الملحدون المكذبون بآيات الله ، وبما أرسل به رسله قد علموا أنه متى تقابل ما جاءت به الرسل من الحق مع باطلهم لم يكن لباطلهم أدنى ثبوت بل اضمحل كما قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ

عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ ﴾ الأنبياء : ١٨ ، فحيث علموا بهذا الأمر مكروا مكرًا كبارًا ، ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ إبراهيم : ٤٦-٤٧ ، الذي من جملته ظهور الحق على الباطل وانتصاره في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، فمن أعظم مكرهم ما أشرت إليه سابقا بإضعاف علوم الدين أو منعها من مدارسهم . ومنها أنهم قالوا : يجب أن تكون الأفكار حرة وألا تتقيد بشيء من القيود ؛ وذلك لقصد التحلل عما جاءت به الرسل والأديان الصحيحة ؛ لأنهم إذا زعموا أن لكل أحد فكره ، وأنه مهما خطر بباله من الأفكار ، والعقائد الهدامة فله أن يبوح بها ، ويدعو إليها ، وألا يعارضها بعقيدة صحيحة ولا فاسدة – كان مضمون هذا وجوب التحلل عن الأديان ، وعدم التقيد بها ، وهذا هو الإلحاد والزندقة ، وهؤلاء أعظم جرما وأشد طغيانا من إخوانهم السابقين الذين ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ﴾ الأنعام : ١٢٤ ، فأولئك معهم نوع اعتراف بالله صحبه الاستكبار عن الانقياد للرسل ، وأما هؤلاء فقلوبهم منكرة للحق الذي جاءت به الرسل وهم مستكبرون عن الانقياد لرسل الله وكتبه بل مستكبرون عن الإيمان بالله ، ومن المعلوم الذي لا يتمارى فيه العقلاء أن إطلاق الحرية للأفكار ، وعدم تقيدها بالحق الثابت الذي قامت البراهين على صدقه وحقيته هو الكفر بالرسل ، وهو الفوضى ، الذي يؤدي بأهله إلى الهلاك الدنيوي قبل الهلاك الأخروي ، ففوضوية الأفكار هي فوضوية الأفعال فعلى ذلك فليفعل كل أحد ما أراد من فسق وفجور وتهتك ، وليطلق لحريته ما شاءت نفسه الأمارة بالسوء من فحشاء ومنكر وبغي ، ولا يتقيد بشريعة ولا بمروءة ولا بإنسانية ، بل ينتقل من طور الإنسانية إلى طور البهائم ، بل إلى طور الشياطين وهذا ما أرادوه ، وهذا ما وصلوا إليه ؛ المتوغلون منهم والباقون يسعون خلفهم ، ثم إنه من المعلوم أن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد أن يتكلم بما يريد ويشتهي ، والإرادات متباينة ، والأغراض مختلفة – أن في هذا هلاك الحكومات والشعوب ، فالخلق في غاية الضرورة إلى ضابط يضبطهم ، وإلى قوانين صارمة قوية تحجزهم عن الشرور المتنوعة ، ومتى أعطوا

حريتهم مرجت أقوالهم ، واختلت أعمالهم ، وتباينت أفعالهم فوقعوا في الفوضى المهلكة ، والشرور القاتلة ، والأمم التي تعمل على هذا هي ساعية في طريق هلاكها الدنيوي قبل الهلاك الأخروي .

فالأفكار الصحيحة هي الأفكار السليمة المتقيدة بالحق التي غايتها الحق وسيرها مع الحق ، وهي الأفكار التي دعا الله عباده إلى التفكير فيها في آياته المتلوة وآياته المشهودة ؛ ليعرف الحق ويعمل بالحق ، وذلك هو الصلاح للظاهر والباطن ، وحيث قد علم أهل العلم والهدى والرشد أن ما جاء به الرسول هو الحق ، وهو الذي يهدي إلى كل خير كان الواجب المتعين والفرض الأكيد التقيد بهذا الحق علمًا وإرادة وعملاً ، فتكون الأفكار حائمة حول هذا الحق المبين لاستخراج علومه ومعارفه النافعة ، وحول إرشاداته ومواعظه لسلوك الصراط المستقيم .

وهذا التقيد الذي هو أفرض الفروض على المكلفين هو ينبوع العلم وأصل الخير ، ومدار صلاح الدين والدنيا عليه ، وهو المانع من الفوضى ، ومن الانطلاق في الهلاك فيتقيد العبد بهذا الحق ولا يتقيد بأي قول يعارضه ، ولا بأي عمل ينافيه ولو صدر من أكابر الناس ؛ لأن ما سوى الرسول ﷺ غير معصوم ، وأما ما جاء به الكتاب والسنة من الحقائق في الأصول والفروع فهو محكم معصوم يدل على كمال اليقين العلمي واليقين العملي ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ النساء:٢٢، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء: ٨٧ ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ الأحزاب: ٤ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ الإسراء: ٩ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت: ٥٣ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ الجاثية: ٦

وإذا أردت أن تعرف الفرق العظيم بين من يدعو إلى تحرير الأفكار من كل القيود ، وبين من يلتزم الحق الذي جاءت به الرسل ولا يبالي بمن خالف ذلك ن وبين من يلتزم العمل بالحق ، وبين من يمشي بعمله مع غريزته ودواعي نفسه – فاضرب لذلك مثلين :

أحدهما : من قلبه خال من التزام الحق والعمل به ، وهو يجري في أعماله وأقواله على مقتضى ما تدعوه إليه نفسه من الإرادات المتنوعة ؛ فإنه لا يبالي بالظلم والبغي والفحشاء والمنكر ؛ فإن النفس أمارة بالسوء فمن أطاعها طاعة عمياء قادته إلى الهلاك والخسار ، تجد مثل هذا أفكاره متضاربة ونظرياته متناقضة وعلومه غير صحيحة ، فهو في أمر مريج ؛ في فكره وسعيه وعمله وجميع تصرفاته.

والثاني : من الرجلين رجل عرف الحق والتزمه ، وعرف أن ماجاءت به الرسل حق ، وأن الكتاب القرآن وسنة محمد ﷺ جاءا بكل علم صحيح ، وبكل حق وصدق ، وبكل هدى ورشاد ، وبكل خير عاجل وآجل ؛ فحصر أفكاره في هذا الميدان الجليل ، واستخرج من كنوز الكتاب والسنة كل حق وهدى ورشد ، وتحلت نفسه بكل خلق جميل يدعو إليه الشرع ، وتخلت عن كل خلق رذيل ؛ فصار عارفًا بالحق ، عاملا بالحق فهذا لا تسأل عما يحصل له من المعارف الجليلة ، والعلوم اليقينية ، والأخلاق الجميلة ، والسير في جميع تصرفاته على العدل الذي هو الصراط المستقيم فهل يستوي هذا وذاك ؟

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الملك : ٢٢ ، فالأول ضال غاو ساع إلى الهلاك والخسران ، والثاني مهتد عالم بالحق ، عامل به يسعى إلى كل خير وبر وكرامة .

والمقصود أن الملحدين والمغتر بهم أبدوا وأعادوا في الدعوة إلى حرية الأفكار ، والغرض من هذا التحلل من أديان الرسل ، ومن الأخلاق الجميلة ؛ لتنطلق النفوس فيما شاءت فتكون البهائم أحسن حالاً منهم ، والعقول والأفكار متفاوتة في إدراكها ، وفي مقاصدها وفي غاياتها كالإرادات ، بل الإرادات تبع الأفكار ، ولو أنهم قيدوا أفكارهم بالحق الذي جاءت به الرسل وإرادتهم باتباع ما نزل الله – لكان خيرًا لهم وأقوم . ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الروم : ٢٩ ، ﴿ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص : ٥٠ ، وقال ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به " فمن كان هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ لا يزيغ عنه فهو المؤمن الحقيقي ، وهو الذي قد هدي للتي هي أقوم في علومه ومعارفه وأخلاقه ، وهو الذي أطمأنت نفسه إلى الصدق والحق ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة والباطل صاحبه في أمر مريج .

## فصل

و مما روج به الملحدون باطلهم و علومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسموها تجديدا ورقيًّا و تقدما و نحوها من الأسماء التي يغرر بها و يغتر بها من لا بصيرة له ، و سموا الحق الذي جاءت به الرسل جمودًا و رجعية و رجوعًا إلى الوراء و تخديرًا كما قال تعالى عن أسلافهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١١٢ – ١١٣.

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان أنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم و تقبيح ما جاءت به الرسل ، و أنهم يتواصون بذلك ، و يفترون علي الله الكذب ، و أنه يغتر به من لا علم له و لا بصيرة و لا إيمان ، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين ، و زادوا زيادات ، كم اصطادوا فيها من ضعفاء البصائر .

و ليس ما جاءت به الرسل جمودًا و لا رجوعًا إلى الوراء و إنما هو الحق و النور و الحياة و الرشد الذي لا حياة للوجود و لا للقلوب إلا به ، و لا نور إلا باقتباس نوره ، و هو الموقظ للهمم و العزائم إلى كل خصلة حميدة ، وإلى كل رقي صحيح و تقدم نافع ، فإن من أصول الشريعة الكبري العمل بالأسباب النافعة ، و الحث علي كل عمل و مصلحة ، و الاستعانة بالله في تحقيق ذلك ، و من المعلوم أن من تحقق بهذين الوصفين ، بذل المجهود و الاستعانة بالمعبود فإنه لا يزال في تقدم مطرد في إصلاح الدين و إصلاح الدنيا المعينة على الدين . في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : "احرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجز [1]". و هذا شامل للأمر بالحرص على ما ينفع في العاجل و الآجل ، و كم في كتاب الله من

[1] مسلم (٢٦٦٤)

الأمر بالأعمال الصالحة النافعة ، و الأمر بالاستعانة بالله التي هي روح الأعمال ، و بها قوامها ، فإن من استعان بالله كفاه و أعانه و قواه و أيده بروح منه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ الطلاق: ٣

و قال تعالى في الأمر بالصبر على الجهاد و مقاومة الأعداء و الترغيب في ثواب ذلك ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ ﴾ النساء: ١٠٤ ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٦ فهذا الأمر بملازمة الصبر على كل عمل نافع ، و البشارة لهم بمعية الله و معونته .

و أما العلوم المادية الخالية من روح الدين و روحه فإنها تقدم إلى الهلاك و الدمار ، و تقدم إلى هدم كل خلق جميل و الاتصاف بكل خلق رذيل ، و المشاهدة و الحس أكبر شاهد على هذا ، و ذلك أنه من الممتنع المحال أن يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق ، فإن الباطل و إن كان له نوع صولة فآخره الزوال و الاضمحلال ، و منتهاه الخسار و الهلاك و التبار [٢].

فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد و الرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب أعداء الأديان كلها ، و زوال شخصياتهم في شخصيات أولئك ، و التشبه بهم في أخلاقهم و لباسهم و عوائدهم الدقيقة و الجليلة ، "و من تشبه بقوم فهو منهم "[٣] . فيرون البقاء على أخلاق دينهم و قومهم التي هي الأخلاق العالية – يرون البقاء عليها جمودا ، و الانحلال عنها هو الرقي ، فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس فصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم و باطنهم ، و صاروا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم و قومهم ، و بهذه الحال تنحل معنوياتهم ، و يندمجون في غيرهم في كل شيء و هذا أبلغ ما يريده الأعداء من المتسمين بالإسلام .

## فصل

و مما يروج به المنحرفون باطلهم لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تتهذب و لا تتعدل إلا بها ، و يطنبون في مدحها و الثناء عليها و مدح المتصفين بها ، و ذم من لم تكن له هذه الثقافة ، و السخرية منه و هم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة ، كل يتكلم بما يخطر له ، لأن العلوم إذا كانت فوضى و الأخلاق تتبعها هكذا يكون أهلها لا يتفقون في نظرياتهم و أعمالهم و أخلاقهم ، و لا يمكننا شرح ما يقولونه عن هذه الثقافة المنحرفة ، و لكنه قد علم أهل العلم و الحجا و أهل العقول الراقية أن الثقافة التي يلهجون بها هبوط أخلاق ، و ذهاب المعنويات الصحيحة و الزهو و العجب و الكبر الذي هو أكبر داء يبتلى به العبد ، و إنما الثقافة الصحيحة و التهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي ، فإنه محال أن تتهذب النفوس و تكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة و أعمالها ، و المشاهدة أكبر شاهد على ذلك ، فإنها مع تطورها و تبحرها عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق و اكتسابها الفضائل ، و عجزت عن ترفعها عن الرذائل ، و إنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح و يتولى هذا التهذيب الصحيح و يوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة و الأعمال إلى الخير و الهدى و الصلاح ، و يزجرها عن كل شر – وهو ما جاء به الدين الإسلامي ، فهو مصلح للظاهر و الباطن ، للعقائد و الأخلاق و الأعمال ، حاث على كل فضيلة ، زاجر عن كل رذيلة ، فروح ما دعا إليه الدين الإسلامي الإيمان بالغيب ، المتضمن للإيمان بالله العظيم ، و ما له من الأسماء الحسنى و الصفات الكاملة العليا و الأفعال الحميدة و التصاريف السديدة ، و يتضمن الإيمان بالجزاء العاجل و الآجل عن الأعمال الصالحة ، و الأعمال السيئة التي لا يعرف تفاصيلها إلا من جهة الرسل ، و هي التي تزرع في القلوب الرغبة في فعل الفضائل و الخيرات ، و التنافس في اكتساب الإحسان في عبادة الله ، و الإحسان إلى الخلق ، و تزرع فيها كراهة الشرور و الرذائل ، و هي التي يكون لها التأثير العظيم في إصلاح الأفراد و

الجماعة ، قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ الحجرات: ٧ – ٨

فهو الذي يوجه الأفكار و الإرادات و الأعمال إلى كل خير ، و يزجرها عن كل ضرر ، و يأمرها بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى ، و ينهاها عن الفحشاء و المنكر و البغي على الخلق في دمائهم و أموالهم و أعراضهم و حقوقهم .

و أما علوم المادة المحضة فإنها جافة لا تنهض بأصحابها إلى مكرمة ، و لا تزجرهم عن منكر و سوء ، و إنما نفوسهم آلية محضة أخس من نفوس السباع الضارية ، لا تسعى إلا إلى أغراضها مهما كانت – فكم بين قلب مملوء من الإيمان بالله و من الرغبة في ثوابه و رضاه و الخشية من سخطه و عقابه ، و أخلاقه أكمل الأخلاق و أفضلها قد أثر هذا الإيمان و توابعه في توجهه و توجيهه و سعيه فكانت أعماله صالحة ، و كان مخلصا لله و مؤديا لحقوق عباده يرعى العهود و الأمانات ، و يحترم الحقوق و المعاملات ، قد اطمأن كل أحد في ثقته و أمانته و قيامه بما عليه من الحقوق – كم بين هذا و بين من هو بضده ليس في قلبه من الإيمان مثقال ذرة و لا رغبة في الخير و رهبة من الشر لا يرعى العهود و الأمانات ، و لا يطمئن إلى ثقته كل من علمه و خبر حاله ، و لا عنده خشية لله تردعه عن المحرمات و الخيانات ، قد هبطت به أخلاقه إلى أسفل سافلين ، ثقافته و همته مصروفة إلى تنميق بدنه و شعره ، و تجميل لباسه و هيئته و كلامه ، و ليس وراء هذا شيء إلا العار و الدمار ، لما هو عليه من الأخلاق الهدامة لأحواله و لمن يتصل به ، فبين هذا و هذا كما بين السماء و الأرض ، و هذا الفرق العظيم عائد إلى الاتصاف بالثقافة العصرية الجافة ، أو الثقافة الدينية التي روحها الرحمة و العدل و القسط و الأمانة و الوفاء بالحقوق .

فأعظم نعمة ينعم الله بها على العبد أن يكون عنده بصيرة يبصر بها الأشياء على ما هي عليه ، فيعرف الحق و يعمل به ، و يعرف الباطل فيدعه ، و الله هو الموفق وحده ، و لا تنظر إلى من تسمى بالإسلام و نبذ أخلاقه وراء ظهره ، و تحتج به على الإسلام و المسلمين في صفته و جموده و هبوط أخلاقه ، فإن الإسلام و المسلمين الحقيقيين يتبرءون ممن هذه حاله و إن تسمى بالإسلام ، و ليس له منه إلا رسمه ، فإن الدين الإسلامي دين الرفعة و العزة و الرقي الصحيح ، فتعاليمه و إرشاداته و أخلاقه و أعماله كلها في غاية الإحكام و الانتظام ، و هي الغاية في توجيه المتصفين بها إلى كل خير و صلاح و إصلاح ، كما هو معروف عند كل أحد ما كان عليه المسلمون الأولون من الكمال و القيام بجميع المقومات الدينية و الدنيوية ، و بهم يضرب المثل في الكمال الإنسانى الذي ليس له نظير ، فمن أراد أن يعرف تأثيرات الدين الجميلة فلينظر إلى هؤلاء ، و أما من أراد المكابرة و التغرير ، فله نظر غير هذا ، و الله المستعان .

## فصل

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ غافر: ٥٦ وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ الأحقاف: ٢٦

أخبر تعالى في هذه الآيات و غيرها أن المكذبين بالرسول و الجاحدين لآيات الله إنما حملهم على ذلك الكبر الذي في صدورهم و احتقارهم و استهزاؤهم بما جاءتهم به الرسل و فرحهم بعلومهم المنافية لعلوم الرسل . ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ غافر: ٨٣.

و هذا الذي ذكره الله هو أفظع و أشنع آثار الكبر الذي هو شر الأخلاق ، الذي من في قلبه مثقال حبة منه لا يدخل الجنة [٤]، و هكذا خلف هؤلاء السلف الطالح ، فإنهم قد اتفقت كلمة سفهائهم و معانديهم أنهم لا يؤمنون ، و لا ينقادون إلا لما دخل تحت حواسهم و تجاربهم ، و نظرياتهم و ما سوى ذلك أنكروه و قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ١٢٤

و قد علم عقلاً و شرعًا و فطرة أن العلوم و الحقائق التي لا تدخل تحت الحواس ، و تدرك بالعلوم التي جاءت بها الرسل ، و بالعقول و الفطرة السليمة – قد علم أنها أكمل العلوم و أقواها و أنفعها ، فهم جحدوها رأسا إلا ما أحاطت به معارفهم الضئيلة مما يدخل تحت الحواس ، فلو فرض الفرض المحال أن جميع العلوم المدركة بالحواس قد أحاطوا بها لكانت ضئيلة جدا بالنسبة إلى علوم الرسل و مدركات العقول ، فكيف و ما أدركوه من علوم الطبيعة و الكون قليل بالنسبة إلى ما لم يعرفوه و هم معترفون بذلك ، و لا يزالون يحدثون نظريات و تجارب يحكمون عليها ثم بعد ذلك يتبين لهم أخطاؤها ، و يستأنفون غيرها ، و هكذا فإذا كان هذا قصورهم و تقصيرهم في علوم المادة التي إنما تكبروا و افتخروا بعلمها فكيف بالعلوم العظيمة التي لم يشموا رائحتها ، علوم الشرع و أصوله و فروعه ، و علوم الغيب و تفاصيل ما أخبر الله به و أخبرت به رسله ؟! قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت: ٥٣

فقد أرى الله عباده في هذه الأوقات من مخترعاتهم ، و مما عملته أيديهم من الخوارق و الايات ما يزداد به المؤمن إيمانا ، و تقوم به الحجة على المعاند المكابر .

فهذه الكهرباء و ما نتج عنها من الأعمال العظيمة المعروفة ، و هي من أعمال البشر الذي علم الله الإنسان ما لم يعلم ، فقبل أن يشاهدوها لو قيل لهم عن بعض أعمالها : إنها ستكون و تقع لبادروا

[4] مسلم (٩١)

بالإنكار كما بادر أسلافهم من المكذبين للنبي ﷺ حين حدثهم بالإسراء و المعراج ، مع أنها من آيات الرسل و خوارقهم التي لا تزال يشاهد نظيرها أو ما يقاربها ، فإذا كانوا يجحدون لما لم يحيطوا به علما ، و قد حدث من المخترعات البشرية ما يكذبهم ، و يبطل الأصل الذي به يحتجون مع أن هذه الخوارق من صنع الآدميين ، و الله هو الذي علمهم إياها ، فكيف ينكرون ما أخبر الله به و أخبرت به الرسل من أمور الغيب ؟ إذ لم تدخل تحت مداركهم و معلوماتهم ، و عجزت عقولهم عن إدراكها ، و هذه الحالة هي دأب الأمم المكذبين للرسل إذا أخبرتهم الرسل بما لم يعرفوه أنكروه و جحدوه و استكبروا عنه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن ﴾ يونس: ٣٩. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ سبأ: ٧ – ٨.

و هل أعظم شقاء و ضلالا ممن ينكر قدرة الخلاق العليم ، و هو يشاهد من آياته في الآفاق و الأنفس أمورا كثيرة تبطل حجته ، و تزهق باطله : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ الذاريات: ٥٢ – ٥٣.

فطغيانهم الشنيع و كبرهم البليغ حملهم على هذا القول الفظيع و هم أحق بالجنون ، إذ زعموا أن هذه الموجودات العظيمة التي هي في غاية الإتقان و الانتظام في خلقها و تصريفها و تدبيرها ، و غاياتها الحميدة ، و حكمها البديعة – زعموا أنها وليدة المصادفة و آثار الطبيعة ، من غير خالق خلقها ، و لا مبدع أبدعها و أتقنها ، مجرد ما ينظر العاقل و يتصور قولهم هذا يعلم أنهم قد ابتلوا ببلية هي أعظم البلايا ، و كيف سولت لهم نفوسهم أن يتفوهوا بهذا القول الذي هو أكبر معبر عن ضلالهم و جهلهم و حماقتهم ، بل هو من أقوال المجانين الذين يهذون بما لا يدرون ، فمن تأمل بعض المخلوقات و ما

أودعها الله من الخلق العجيب ، و النظام المحكم و التدابير العجيبة جزم جزما لا يمتري فيه بكذب هؤلاء و افترائهم في جحدهم ، و مكابرتهم للمحسوسات ، فضلا عن المعقولات و ما جاءت به الرسل . قال تعالى : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ إبراهيم: ١٠. و قال تعالى : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ الطور: ٣٥ – ٣٦. ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ ﴾ الإسراء: ٤٩ – ٥١. أي : من الكبر الذي في صدورهم ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾ الإسراء: ٥١ .